المنهج الاجتماعي

يعد المنهج الاجتماعي من المناهج الأساسية في الدراسات الأدبية والنقدية، وقد تولد هذا المنهج من المنهج التاريخي، وهو منهج يربط بين الأدب والمجتمع بطبقاته المختلفة، فيكون الأدب ممثلاً للحياة على المستوى الجماعي لا الفردي؛ باعتبار أن المجتمع هو المنتج الفعلي للأعمال الإبداعية، فالقارئ حاضر في ذهن الأديب وهو وسيلته وغايته في آن واحد.

وقد تعددت تسميات هذا النوع من النقد، فتارة نجده يسمى النقد الآيديولوجي، وتارة النقد الواقعي، أو النقد الاجتماعي. وهذا النوع من النقد الذي يربط الأدب بالواقع الاجتماعي أفرز مجموعة من المفاهيم والمصطلحات النقدية، منها الالتزام. أي التزام الأديب وأدبه بقضايا المجتمع والتعبير عنها.

والمنهج الاجتماعي في الأدب هو ذاك المنهج النقدي الذي يدرس ويحلل، ويقوم بتأويل النصوص الإبداعية من منظور اجتماعي، بمعنى انه يتعامل مع الظاهرة الأدبية باعتبارها ظاهرة اجتماعية، حيث يسعى هذا الاتجاه النقدي إلى بيان الصلة بين النص والمجتمع الذي نشأ فيه. ويتفق معظم الباحثين على أن الإرهاصات الأولى للمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب ونقده بدأت منهجياً منذ أن أصدرت "مدام دي ستايل" عام 1800م كتابها "الأدب في علاقته بالأنظمة الاجتماعية"، فقد تبنت مبدأ أن الأدب تعبير عن المجتمع .

ويمكن عد التحليلات التي حواها كتاب الناقد " تين" في كتابه "تاريخ الأدب وتحليله عام 1863م، أحد أبرز التطبيقات الممثلة للمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب وتحليله.

المنهج الاجتماعي في النقد الأوربي الحديث:

كان للفكر المادي الماركسي أثر في تطور المنهج الاجتماعي، وإكسابه إطاراً منهجياً وشكلاً فكرياً ناضجاً، ومن المتقرر في الفلسفة الماركسية أن المجتمع يتكون من بنيتين: دنيا: يمثلها النتاج المادي المتجلي في البنية الاقتصادية، وعليا: تتمثل في النظم الثقافية والفكرية والسياسية المتولدة عن البنية الأساسية الأولى، وأن أي تغير في قوى الإنتاج المادية لابد أن يُحدث تغيراً في العلاقات والنظم الفكرية

واعتماداً على ما سبق؛ ظهرت نظرية "الانعكاس" التي طورتها الواقعية، إلا أن المشكلة التي كانت تواجه هذه النظرية تتمثل في فرضية مؤداها، أنه كلما ازدهر المجتمع في نظمه السياسية والحضارية والاقتصادية؛ ازدهر الأدب، إلا أن مراجعة تاريخ الآداب والمجتمعات أثبتت أن التلازم ليس صحيحاً، نضرب مثلاً لذلك بالعصر العباسي الثاني الذي كان نموذجاً لتفكك الدولة، وانتقال السلطة من العرب إلى العجم، ونشوء الدويلات، كل هذه الظواهر السلبية اقترنت بنشوء حقبة من الأدب الذي تميز بالإبداع الشعري في الثقافة العربية .

لقد قدَّم الماركسيون تصوراً لتفادي هذه المشكلة، سموه " قانون العصور الطويلة"، مفاده أن نتيجة التطور الاقتصادي والسياسي والثقافي وارتباطه بالتطور الإبداعي الأدبي لا يظهر مباشرة؛ بل يلزم ذلك مرور أجيال وعصور طويلة حتى يتفاعل الأدب مع مظاهر التطور المختلفة ويكتسب القوة منها، فهذا القانون يرفض ارتباط الأدب بالمجتمع في فترات وجيزة.

وقد عملت الماركسية مع الواقعية جنباً إلى جنب في تعميق الاتجاه الذي يدعو إلى التلازم بين التطور الاجتماعي والازدهار الأدبي؛ مما أسهم في ازدهار "علم الاجتماع" بتنوعاته المختلفة، كان من بينها علم نشأ قبل منتصف القرن العشرين أطلق عليه: علم "اجتماع الأدب" أو "سوسيولوجيا الأدب"، وقد تأثر هذا العلم بالتطورات التي حدثت في الأدب من جانب، وما حدث في مناهج علم الاجتماع من جانب آخر .

أهم أعلامه في الغرب إلى جانب كارل ماركس، وسان سيمون (1825/1760) لوسيان غولدمان جورج لوكاش .

اعتمد "جولدمان" على مجموعة من المبادئ العميقة والمتشابكة التي يمكن أن نوجزها في الآتي:

1. يرى "جولدمان" أن الأدب ليس إنتاجاً فردياً، ولا يعامل باعتباره تعبيراً عن وجهة نظر شخصية، بل هو تعبير عن الوعي الطبقي للفئات والمجتمعات المختلفة، بمعنى أن الأديب عندما يكتب فإنه يعبر عن وجهة نظر تتجسد فيها عمليات الوعي والضمير الجماعي، فجودة الأديب وإقبال القرَّاء على أدبه بسبب قوته في تجسيد المنظور الجماعي ووعيه الحقيقي بحاجات المجتمع، فيجد القارئ ذاته وأحلامه ووعيه بالأشياء، والعكس صحيح لمن يملكون وعياً مزيفاً.

2. إنَّ الأعمال الأدبية تتميز بأبنية دلالية كلية، وهي ما يفهم من العمل الأدبي في إجماله، وهي تختلف من عملٍ لآخر، فعندما نقرأ عملاً ما فإننا ننمو إلى إقامة بنية دلالية كلية تتعدل باستمرار كلما عبرنا من جزء إلى آخر في العمل الإبداعي، فإذا انتهينا من القراءة نكون قد كوَّنا بنية دلالية كلية تتكون من المقابل المفهومي والمقابل الفكري للوعي والضمير الاجتماعيين المتبلورين لدى الأديب.

و نجد في تراثنا النقدي القديم نقداً للمجتمع وسلوكياته ككتاب "البخلاء" للجاحظ، والحرص على الربط بين المعنى الشريف واللفظ الشريف الذي نجده عند بشر بن المعتمر، وبعض الملاحظات المنتشرة في كتب النقد القديم التي تحث على الربط بين المستوى التعبيري ومستوى المتلقين .

أما في النقد الحديث، فلم يكن لهذا المنهج رواد بارزون مقتنعون به، يربطون بين الإنتاج المادي والنتاج الأدبي كما يوجد في روسيا، ولكننا نجد بعض الدعوات إلى العناية بالاتجاه الاجتماعي في النقد الأدبي عند شبلي شميل، وسلامة موسى، وعمر الفاخوري، وقد اقترب هذا المنهج من المدرسة الجدلية عند محمود أمين العالم، وعبد العظيم أنبس، ولوبس عوض، حتى كان تجليه في النقد الأيدلوجي عند محمد مندور .

للمنهج الاجتماعي خصائص وأسس تميزه عن باقي الخلفيات النقدية منها:

1. يرى أن الأديب هو ابن بيئته لا يعيش معزولا عنها.
2. أن الإنتاج الأدبي هو جزء لا يتجزأ عن السياق الاجتماعي والواقع المعيش.
3. الأدب صورة للمجتمع، و لسانه، ومرآة عاكسة للانتماء الطبقي للأديب.
4. الأدب يخاطب المجتمع، فهو صورة منه، وهو نقد مضموني أي يهتم بمضمون النص.
5. الأدب ناقل ومروج للأفكار السياسية.
6. النقد الاجتماعي نقد تفسيري يحاول الناقد من خلاله إبراز الدلالات الاجتماعية أو التاريخية الكامنة في العمل الأدبي
7. النقد الاجتماعي نقد تقويمي يعلي من شأن الأديب الملتزم بقضايا أمته.

8- العلاقة بين الأديب والمجتمع علاقة جدلية (تأثير وتأثر)، حيث إن الظروف التي يعيشها الأديب تبلور فكره، ونظرته للحياة والكون، أما الأديب يؤثر في مجتمعه من حيث يسهم في تطويره وإصلاحه.

9- الأدب نشاط إنساني متميز إذن فهو لا بزخرفة ولا بترف، إنما هو يقدم قيما حضارية من خلال هذا الأدب، وهو أيضا وجها من وجوه الحاجات الروحية.

10- إذا كان الأدب يعكس المجتمع فهو انعكاس يصور الواقع انطلاقا من فهمه له، وانطلاقا من زاوية نظر الأديب الفنية، فهو ليس بمصور فوتوغرافي محض، بل يعكس حسب مذهب الأديب الإيديولوجي، إذ يقدم موقفه الفكري خلال عمليته النقدية فيكون بذلك ناقد الناقد.

11- إذا كان الأديب في المنهج التاريخي سيركز على الجنس والبيئة والعصر، فإن الأديب في المنهج الاجتماعي يركز على العوامل التي ساهمت في إنتاج النص، وهو العامل الاقتصادي الذي يعتبر عاملا أساسيا في تشكل الأدب، بالإضافة إلى العوامل السالفة الذكر.

12- ربط هذا المنهج الأدب بالجماهير، أي جعل الجماهير هي المستهدفة من الخطاب بقصد التأثير فيه، ومن ثمة فالناقد الاجتماعي أعلى من شأن الجماعة، وأكد على تأثير الأدب فيها.